... وعلى الأرض السلام

أكثر من ألفي سنة على مجيء المخلص أمير السلام، والسلام ما زال حلمًا بعيدًا، فهل كان مجيئه عبثًا، أم أننا لم نفهم بأي سلام أتانا وكيف نحافظ عليه؟

أذكر اني ذهبت يوماً لأشارك في قداس الضيعة، مع أهل وأصدقاء لم أرهم منذ وقت طويل. كانت الكنيسة ملأى وكل في مكانه المعتاد، والأجواء عابقة بالصلاة والتقوى والإيمان. فرحت أتذكر : هذا طنّوس ابن الثمانين وشقيقه مجيد ابن التسعين، يجلسان في المكان عينه الذي عرفته يوم كنت طفلة. وهذه ليندا ما زالت ترفع شعرها بالطريقة عينها، لكن وجهها زادت خطوطه. وذاك الطفل يذكرّني بأبيه، الطفل الذي كنت ألعب معه... ما أجملهم يصلّون بهناء. ضيعتنا والحمد لله، هي فعلاً هي ضيعة السلام. خيّ!

عدت من ذكرياتي على صوت الأبونا يطلب منا أن نتبادل السلام. نظرت أمامي بالعم طنّوس يغيّر مكانه ويعود إلى البنك الأخير. غريب! فعادة العم طنّوس ألاّ يقبل الجلوس إلاّ في الصف الأمامي. سألت جارتي: هل هو مريض؟ ربما كان بحاجة لمن يساعده. فما كان منها إلاّ أن وشوشتني: لا تخافي عليه، صحّته مثل صحة الشباب ولا يشكو من شيء. إنه يهرب إلى الوراء كي لا يضع يده بيد أخيه مجيد أثناء مبادلة السلام! إختلافا على قسمة الأرض فتخلّى كل منهما عن أخيه. ومع ذلك فهما دائمًا في الكنيسة، لا يتغيبان عن أي من الواجبات الدينية مهما كانت الظروف. وقد سمعت كلاً منهما يؤكد بأن الله سينصره على أخيه، وبأن يسوع سيضرب أخيه ليُظهر الحق!

قضى العم طنّوس وأخيه عمرهما الطويل في الضيعة الوادعة، وحفظا الصلوات والتراتيل غيبًا، واستمعا إلى كل عظات الآحاد، وشاركا في كل الرياضات الروحية السنوية الخ... وها أنا اكتشف اليوم بأنهما، كما الكثيرين من بيننا، يفكران بعقلية يهود ما قبل المسيح.

أي مسيح نريد؟

انتظر اليهود مسيحًا يكون قائدًا مجيدًا يضرب، كل من لا يشاركهم قناعاتهم، بعصا من حديد، ويعيد للأمة اليهودية القوة التي حققها الملك داود. ولكن وجد الشعب نفسه، طيلة قرون ستة، تحت سلطة القوات الغريبة (الاشوريون والفرس واليونان وأخيرًا الرومان). بادت كل محاولات التحرر بالفشل، فلم يعد عند هذا الشعب أمل إلا بالله القادر أن يرسل مخلصًا "مسيحًا" يمسك بزمام الأمور، ويسحق كل الأشرار دون رحمة. هذا ما آمن به تلاميذ يسوع، وهذا ما كان بطرس يأمله يوم أعلن ليسوع "أنت المسيح".

ورائي يا شيطانّ

عَمِلَ يسوع على إفهام تلاميذه والرسل إن الخلاص الذي يحمله لا يشبه الخلاص الذي ينتظرونه، وأعلن لهم أن طريقه بعيدة عن طريق المجد والشهرة، لأنها تبدو فاشلة بنظر الناس وستقوده إلى الألم والموت على الصليب.

وماذا كانت ردة فعل الرسل؟ غضبوا، ورفضوا، ولاموا يسوع، وخجلوا منه ومن تصرفاته. أخذه بطرس جانبًا وعاتبه قائلاً: "مستحيل أن يحصل هذا الأمر. يجب أن نسير نحو النصر. أنت المسيح فلا يجب أن تقبل بالضعف والألم والموت. أرجوك يا يسوع اسحقهم بعصا من حديد، بدّدهم، انتصر، فأنت ابن الله. لا تجعلنا أضحوكة فيقول الناس أين إلههم؟"

غضب بطرس باسم كل التلاميذ، فغضب يسوع من قلة فهمهم ومن تمسّكهم بقناعاتهم القديمة. أرادوا أن يسير يسوع وراء أفكارهم وأن يستجيب لإرادتهم، فكان جوابه لبطرس: ورائي يا شيطان! أنت من يجب عليه أن يسير ورائي وليس العكس. يجب أن تفهم طريقتي وتتبع خطواتي. إن ما تريدني أن أفعله لا يتطابق وإرادة الله. أنت تريد لي طريق المنطق البشري. أنت شيطان عندما تؤمن بأن أفكار البشر هي إرادة الله، وتسعى لتحقيقها.

يا عيب الشوم! كيف يفكر رسل يسوع مثل يهود أيامهم؟ وكيف حاولوا إقناع يسوع بتغيير خطّته الخلاصية، وباستعمال القوة والبطش حاولوا تقديمه كمسيح سياسي وعسكري؟

نحن نغضب من اليهود الذين ينتظرون مسيحًا كهذا، فلا بد لنا من الغضب من الرسل أصدقاء يسوع الذين لم يفهموا إرادته. ولكن في حياتنا اليومية والشخصية، ألا نفكر مثلهم؟ بل نحن أسوأ منهم لأننا لم نفهم رغم مرور ألفي سنة. فالعم طنّوس الذي يطلب من يسوع أن يضرب أخيه، ليبرهن للجميع أنه على حق، لم يعرف يسوع بعد. ومن يصلي دون ملل، ليحقق الله طلبه فيموت من يضايقه، ويفلس من لا يتفق معه، ويمرض جاره المزعج، ويضرب زلزال بلادًا لا يحبها، ويعم وباء ضيعة لا يستلطفها الخ. لم يعرف يسوع بعد.

فليتساءل كل منا بخوف ورعدة: كم مرة في اليوم يقول لي يسوع: "ورائي يا شيطان؟

إن طريق السلام على الأرض بسيط، يبدأ بأن أعطي السلام لأخي، وبأن اترك للّه أن يمسك زمام الأمور.